رابعاً: التعاون والتكافل الاجتماعي

obeikandl.com

obeikandl.com

الحديث السابع عشر: أخوة التراحم والتعاطف

حدثنا أبو نعيم حدثنا زكريا عن عامر قال سمعته يقول سمعت النعمان بن بشير يقول: قال رسول الله ﷺ: **«ترى المؤمنين في تراحمهم وتوادهم وتعاطفهم كمثل الجسد إذا اشتكى عضوٌ تداعى له سائر جسده بالسهر والحمى»**.

- تخريج الحديث:

- فتح الباري، كتاب الأدب، باب رحمة الناس والبهائم، ج١٠ ص٤٣٨.

- مسلم، كتاب البر والصلة والآداب، باب نصر الأخ ظالماً أو مظلوماً، بشيء من التقديم والتأخير، ج١٦ ص١٤٠.

- مسند الإمام أحمد، ج٤ ص ٢٧٠.

- الراوي:

النعمان بن بشير بن سعد بن ثعلبة الأنصاري الخزرجي ابن أخت عبد الله ابن رواحة صاحب رسول الله ﷺ وابن صاحبه، وُلد النعمان سنة اثنتين وعُدَّ من الصحابة الصبيان باتفاق.

قال الواقدي: كان أول مولود في الإسلام من الأنصار بعد الهجرة بأربعة عشر شهراً ووالده بشير بن ثعلبة من أصحاب رسول الله ﷺ.

أراد أن يهب ابنه النعمان لخدمة رسول الله ﷺ فقال له رسول الله ﷺ: أكلّ ولدك نحلت مثل هذا قال: لا. فقال رسول الله ﷺ فارجعه. وكان النعمان - رضي الله تعالى عنه - يتردد إلى مجالس رسول الله ﷺ رغم صغر سنه يستمع إلى توجيهاته ويحفظ أحاديثه. ومن أهم ما روى الحديث المشهور «الحلال بيّن والحرام بيّن...»، وكذلك روى عن خالد بن عبد الله بن رواحة وعمر وعائشة. روى عنه ابنه محمد ومولاه سالم.

وكان صاحب مواهب الخطابة والشعر، وورث هذه المواهب من أخواله، وسلك مسلك خاله عبد الله بن رواحة في صبغ الشِّعر بالصبغة القرآنية.

وقال سماك بن حرب: استعمله معاوية للكوفة، وكان من أخطب من سمعت. وقال الهيثم: نقله معاوية من إمرة الكوفة إلى إمرة حمص. وكان عثمانيًّا، ثم عزله معاوية بن أبي سفيان فصار إلى الشام. ولما مات يزيد بن معاوية واستخلف معاوية بن يزيد ومات عن قرب دعا النعمان إلى ابن الزبير ثم دعا إلى نفسه، فواقعه مروان بن الحكم بعد أن واقع الضحاك بن قيس، فقتل النعمان بن بشير، وذلك في سنة خمس وستين.

مسنده مائة وأربعة عشر حديثاً، اتفق له على خمسة، وانفرد البخاري بحديث، ومسلم بأربعة[1].

- المعاني اللغوية:

تودده: طلب مودته واجتلاب وده.

تودد إليه: تحبب، توادّ الرجلان: تحابا.

رَحِمه: رقَّ له وأشفق عليه وتعطَّف وغفر له، تراحم القوم: رحم بعضهم بعضاً.

عَطَفَ: عطفت الناقة على ولدها: حنَّت عليه ودرَّ لبنها، تعاطف القوم: عطف بعضهم على بعض. (توادهم) والأصل التوادد فأدغم، والتوادد تفاعل من المودة، والود والوداد بمعنى تقرب الشخص من آخر بما يحب قوله.

---

(١) راجع كتاب الإصابة في تمييز الصحابة، م٣ ص٥٥٩. سير أعلام النبلاء ج٣ ص٤١١ ـ ٤١٢. وطبقات ابن سعد، م٦ ص٥٣.

(وتعاطفهم) قال ابن أبي جمرة: الذي يظهر أن التراحم والتوادد والتعاطف وإن كانت متقاربة في المعنى ولكن بينها فرقا لطيفا، فأما التراحم فالمراد أن يرحم بعضهم بعضاً بأخوة الإيمان لا بسبب شيء آخر، أما التوادد فالمراد به التواصل الجالب للمحبة كالتزاور والتهادِي، وأما التعاطف فالمراد به إعانة بعضهم بعضاً، كما يعطف الثوب عليه ليقويه.

- المعاني البلاغية:

ترى المؤمنين في تراحمهم وتوادهم وتعاطفهم كمثل الجسد.

أ - المشبه: المؤمنون في تراحمهم وتوادهم وتعاطفهم.

ب - المشبه به: الجسد.

جـ - حرف التشبيه: الكاف.

د - وجه الشبه: التوافق في التعب والراحة.

هـ - نوع التشبيه: تمثيلي.

- المعنى العام:

«ترى المؤمنين في تراحمهم وتوادهم وتعاطفهم كمثل الجسد...».

الحديث حلقة مترابطة مع حلقات التآخي والتآلف والسعي نحو إيجاد مجتمع رفيع كريم نظيف سليم، يتضمن القواعد والأصول والمبادئ والمناهج التي يقوم عليها المجتمع الرباني، مجتمع يليق أن ينتسب إلى الأخوة، مجتمع نقي القلب نظيف المشاعر، مجتمع له أدب مع الله وأدب مع رسوله وأدب مع نفسه وأدب مع غيره، وأدب في هواجس ضميره وفي حركات جوارحه، أدب في طلب مودته ووده. ولذلك اعتبر الإمام النووي أن الحديث صريح في تعظيم حقوق المسلمين بعضهم على بعض، وحثهم على التراحم والملاطفة والتعاضد في غير إثم ولا مكروه[1].

(١) صحيح مسلم بشرح النووي، ج١٦ باب تراحم المؤمنين وتعاطفهم وتعاضدهم.

والرسول الكريم ﷺ يحب أن يعمق مفاهيم قوله تعالى ﴿**إنما المؤمنون إخوة**﴾ بإيجاد مجتمع متآلف مترابط، فكان يعبر عن هذا المفهوم في مناسبات عديدة وبأساليب بلاغية؛ فعن أبي موسى قال: قال رسول الله ﷺ: «المؤمن للمؤمن كالبنيان يشد بعضه بعضاً»(١). ووضع بذلك قاعدة تشريعية عملية لصيانة المجتمع المؤمن من الخصام والتفكك تحت النزوات والاندفاعات، وتعبير «المؤمن للمؤمن كالبنيان» فيه استجاشة لقلوب الذين آمنوا، واستحياء للرابطة الوثيقة بينهم، وشرح بأسلوب آخر لمعنى توادهم وتراحمهم وهذه الكلمة ألفت بينهم.

قال ابن أبي جمرة: «الذي يظهر أن التراحم والتوادد والتعاطف وإن كانت متقاربة في المعنى لكن بينها فرقا لطيفا، فأما التراحم أن يرحم بعضهم بعضاً بأخوة الإيمان لا بسبب شيء آخر»، بحيث يرق لأخيه ويتألم بألمه ويقف بجانبه في السراء والضراء بدوافع الأخوة الإيمانية، لا بدوافع النزوات والعصبيات. أما التوادد فالمراد به التواصل الجالب للمحبة كالتزاور والتهادي، فإن الهدية خير وسيلة لكسب المودة ولتجديد الروابط الأخوية وتعميقها «تهادوا تحابوا فإن الهدية تذهب وحر الصدر». وكان ﷺ يكافئ الهدية بأحسن منها، ويتبادل مع الجيران والأصحاب الهدايا. فلكلمة «تهادوا» مفاهيم لا تنطبق إلا إذا كانت من الطرفين. وأما التعاطف فالمراد به إعانة بعضهم بعضاً كما يعطف الثوب عليه ليقويه»(٢). فهي أخوة، أخوة التراحم وأخوة التواد وأخوة التعاطف ولكل منها مجالاتها.

وشبه الرسول الكريم ﷺ هذه الأخوة الشاملة بجسد المؤمن فيقول: «المسلمون كرجل واحد إن اشتكى عينه اشتكى كله». والعين عضو حساس

---

(١) المصدر نفسه.

(٢) راجع فتح الباري م١٠، كتاب الأدب، باب رحمة الناس والبهائم.

في الجسم حساسية مرهفة، فآلام العين المبرحة لا تترك مجالاً لأعضاء الجسد الأخرى أن ترتاح أو تهدأ، بل لا بد أن تتعاطف بحيث كل عضو يتململ ويقلق ولا يقر له قرار. هكذا يجب على المؤمن أن يعمق أخوته مع إخوانه في الله، فيعيش معهم في الفكر والروح وبالجسد والقلب، يتفقد أحوالهم ويسهر لراحتهم. ومن جمال الأسلوب أنه ﷺ يكرر هذا المعنى في نفس الحديث فيقول: «وإن اشتكى رأسه اشتكى كله»، وهذا التشبيه يدرك جماله وأبعاده الصغير والكبير والأمي والمتعلم، فإن آلام الرأس من الصداع ومن وجع الأسنان من الآلام التي تهز الجسم كله.

ثم أحاط ﷺ هذا المجتمع الأخوى بسياج من الحيطة والحذر، وحذر من الأساليب التي تسيء إلى هذا المجتمع النظيف فقال: «إياكم والظن فإن الظن أكذب الحديث ولا تحسسوا ولا تجسسوا ولا تناجشوا ولا تباغضوا ولا تدابروا وكونوا عباد الله إخواناً»(١).

لأن المجتمع الفاضل الذي يقيمه الإسلام تحت شعار (إنما المؤمنون إخوة) مجتمع له أدب رفيع، لا مجال فيه لسوء الظن والتجسس، ولكل فرد فيه كرامته التي لا تمس وهي من كرامة المجموع. ولمز أي فرد هو لمز لذات النفس، والقرآن في هذا الموضوع يهتف للمؤمنين بذلك النداء الحبيب ﴿**يا أيها الذين آمنوا لا يسخر قوم من قوم عسى أن يكونوا خيرًا منهم ولا نساء من نساء عسى أن يكن خيرًا منهن ولا تلمزوا أنفسكم ولا تنابزوا بالألقاب**﴾(٢). ومن حق المؤمن على المؤمن ألا يناديه بلقب يكرهه ويزري به، ومن أدب المؤمن ألا يؤذي أخاه. وقد غير ﷺ أسماء وألقابا كانت في الجاهلية لأصحابها، أحس فيها

(١) صحيح مسلم شرح النووي، كتاب البر والصلاة، ج١٦ ص١١٩.
(٢) سورة الحجرات: ١١.

بحسه المرهف وقلبه الكريم بما يزري بأصحابها، أو يصفهم بوصف ذميم. والحديث بعد استجاشة شعور الأخوة، بل شعور الاندماج في نفس واحدة وبعد تشبيه بليغ كمثل الجسد الواحد، يطالب المؤمنين أن يشكلوا مجموعة واحدة في أمة واحدة وكالجسد الواحد.

- ما يستفاد من الحديث:

١ - التوادد: هو الذي يدفعك دفعاً إلى كشف ضوائق إخوانك، فلا تهدأ حتى تزول غمتها وتُدْبر ظلمتها، فإذا نجحت في ذلك استنارت روحك واستراح ضميرك.

٢ - من علائم التراحم أن تحب النفع لأخيك، وأن تهش لوصوله كما تبتهج بالنفع يصل إليك أنت، فإذا اجتهدت في تحقيق هذا النفع فقد تقربت إلى الله بأزكى الطاعات وأجزلها مثوبة.

٣ - ومن حق التعاطف أن يشعر المسلم بأن أخاه المسلم ظهر له في السرّاء والضرّاء، وأن قوته لا تتحرك في الحياة وحدها، بل إن قوى المؤمنين تساندها وتشد أزرها، وهذا يعني الحديث: «المؤمن للمؤمن كالبنيان يشد بعضه بعضاً». ومن ثم كانت الأخوة الخالصة نعمة مضاعفة، لا نعمة التجانس الروحي فحسب، بل نعمة التعاون المادي كذلك.

٤ - أخوة التوادد والتعاطف تفرض التناصر بين المسلمين، لا تناصر العصبيات العمياء، بل تناصر المؤمنين المصلحين لإحقاق الحق وإبطال الباطل، وردع المعتدي وإجارة المهضوم. فلا يجوز ترك مسلم يكافح وحده في معترك، بل لا بد من الوقوف بجانبه على أي حال لإرشاده إن ضل وحجزه إن تطاول، والدفاع عنه إن هو ظلم.

- فقه الحديث :

- لا يجوز لمسلم أن يبيع على بيع إخـوانـه ولا يسـوم على سـومهم ولا يخطب على خطبهم ولا يتعرض لما سبقوا إليه من المباحات .

obeikandl.com

الحديث الثامن عشر: سفينة النجاة

حدثنا أبو نعيم حدثنا زكرياء قال: سمعت عامراً يقول: سمعت النعمان بن بشير - رضي الله عنهما - عن النبي ﷺ قال: « **مثل القائم على حدود الله والواقع فيها كمثل قوم استهموا على سفينة فأصاب بعضهم أعلاها وبعضهم أسفلها فكان الذين في أسفلها إذا استقَوْا من الماء مروا على من فوقهم، فقالوا لو أنا خرقنا في نصيبنا خرقاً ولم نؤذ من فوقنا فإن يتركوهم وما أرادوا هلكوا جميعاً وإن أخذوا على أيديهم نَجَوْا ونَجَوْا جميعاً**».

- تخريج الحديث:

- صحيح البخاري بحاشية السندي، م١ ج٢، كتاب المظالم، باب الشركة في الطعام والنهر والعروض، ص ٧٥، كتاب الشهادات، باب القرعة في المشكلات ص١١٠.

- تحفة الأحوذي بشرح جامع الترمذي، م٦، باب ما جاء في تغيير المنكر باليد أو باللسان أو بالقلب ص٣٩٤.

وبين الروايات الثلاثة اختلافات يسيرة في اللفظ، وهي كلها عن النعمان بن بشير. وهذا حديث حسن صحيح. ومعناه ما يلي:

أ) إن كان للحديث إسنادان فأكثر فالمعنى (حسن) باعتبار الإسناد (صحيح) باعتبار إسناد آخر.

ب) وإن كان له إسناد واحد فالمعنى (حسن) عند قوم (صحيح) عند قوم آخرين.

وهذا الحديث له إسناد واحد؛ فقد جاء بطريق النعمان بن بشير، فمعناه أنه حسن عند قوم وصحيح عند قوم آخرين.

- المعاني اللغوية والبلاغية :

سَهَمَ : غلبه في المساهمة، وساهمه : قارعه، وتساهم واستهم القوم : تقارعوا .

أَسْهَمَ بين القوم : ضرب القُرْعة .

(استهموا على سفينة) : اقتسموا محالها ومنازلها بالقرعة .

(القائم على حدود الله) : المراد به المستمسك بالدين القائم بواجب الدعوة من أمر بالمعروف ونهي عن المنكر، (وحدود الله) : تقسم إلى قسمين : حدود الأمر وحدود النهي فحدود الأمر يجب امتثالها، وحدود النهي يجب اجتنابها . فمن الأول قوله تعالى : ﴿**وتلك حدود الله يبينها لقوم يعلمون**﴾ ومن الثاني ﴿**تلك حدود الله فلا تقربوها**﴾ .

(الواقع فيها) : المراد به المستهتر بأمور الدين المرتكب للمنكرات والمعاصي الذي لا يبالي بما فعل من فحش وموبقات .

(خرقنا في نصيبنا) : أي نثقبها، معناه ثقبنا المكان الذي نحن فيه لنستخرج منه الماء، والمراد خرق السفينة .

(أخذوا على أيديهم) : أي منعوهم مما أرادوه من خرق السفينة والتعبير بلفظ (أخذوا على أيديهم) يفيد المنع بالقوة كمن شددنا يديه بالوثاق لمنعه من الحركة والعمل .

- المعنى العام :

الحديث مثلٌ أدبي بليغ يبين أهمية الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وأهمية التكافل بين الفرد والجماعة وبين الجماعة والفرد، يوجب على كل منهما تبعات، ويرتب لكل منهما حقوقاً . والإسلام يعطي عناية بالغة لهذا التكافل إلى حد

التوحيد بين المصلحتين، وحد الجزاء والعقاب على تقصير أيهما في النهوض بتبعاته في شتى مناحي الحياة المعنوية والمادية على السواء.

فكل فرد مكلف أولاً أن يحسن عمله الخاص، وإحسان العمل عبادة لله؛ لأن ثمرة العمل الخاص ملك للجماعة وعائدة عليها في النهاية. ﴿**وقل اعملوا فسيرى الله عملكم ورسوله والمؤمنون**﴾(١).

مثلٌ في غاية الجمال والدقة يصور فيه الرسول الكريم المجتمع البشري بما فيه من أخيار وأشرار ومتقين وفجار بركاب سفينة في بحر تشق طريقها وسط الأمواج المتلاطمة والأعاصير الهائجة، وقد انقسم الركاب فيها بالقرعة إلى قسمين: قسم في أعلى السفينة يتمتعون بجمال الكون وبالسماء الصافية والطبيعة الخلابة من الحياة والطيور. وقسم في أسفل السفينة محرومون من هذه المناظر ولا ينعمون بما ينعم به إخوانهم في الطبقة العليا حتى الماء، فقد كانوا يجلبونه من الأعلى، ولما عانوا هذه المشقة فكروا في وسيلة للراحة وهي أن يثقبوا أسفل السفينة وفي مكان خاص بهم؛ لئلا يتعبوا أنفسهم ولا يزعجوا جيرانهم «فقالوا: لو أنا خرقنا في نصيبنا خرقا ولم نؤذ من فوقنا. فإن تركوهم وما أرادوا هلكوا وإن أخذوا على أيديهم نجوا ونجوا جميعاً».

وهو تصوير بديع لتشابك المصالح وتوحيدها بإيذاء التفكير الفردي الذي يأخذ بظاهر المعاني النظرية ولا يفكر في آثار الوقائع العملية، ورسم دقيق لواجب الفرد والجماعة نحو الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر والتعاون بين جميع الأفراد في هذا المجال واجب لمصلحة الجماعة ﴿**وتعاونوا على البر والتقوى ولا تعاونوا على الإثم والعدوان**﴾(٢)، ﴿**ولتكن منكم أمة يدعون إلى الخير ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر**﴾(٣).

---

(١) سورة التوبة: ١٠٥.

(٢) سورة المائدة: ٢.

(٣) سورة آل عمران: ١٠٤.

وكل فرد مسئول بذاته عن الأمر بالمعروف فإن لم يفعل فهو آثم ومعاقب بإثمه يتحمل نتائج سكوته شخصيًّا ﴿**خذوه فغلوه * ثم الجحيم صلوه * ثم في سلسلة ذرعها سبعون ذراعًا فاسلكوه *إنه كان لا يؤمن بالله العظيم * ولا يحض على طعام المسكين * فليس له اليوم هاهنا حميم * ولا طعام إلا من غسلين * لا يأكله إلا الخاطئون**﴾[1]. وعدم الحض على طعام المسكين يعد علامة من علامات التقصير في الأمر بالمعروف والعناية بإخوانه المسلمين. فالمسلم أخو المسلم لا يخذله ولا يخونه.

وكل فرد مكلف أن يزيل المنكر الذي يراه. عن أبي سعيد الخدري قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «من رأى منكم منكراً فليغيره بيده (فلينكره) ومن لم يستطع فبلسانه ومن لم يستطع فبقلبه. وذلك أضعف الإيمان»[2].

وهكذا يصبح كل فرد مسئولاً عن كل منكر يقع في الأمة ولو لم يكن شريكاً فيه؛ فالأمة كركاب السفينة الواحدة، ومصيرهم واحد، والمنكر يؤذي الأمة كلها، فعلى كل فرد أن يذود عنها ويحميها.

والأمة كلها تؤاخذ وينالها الأذى والعقاب إذا سكتت عن وقوع المنكر فيها من بعض بنيها. وسكوت الأمة عن مخالفات الأفراد شبيهة تماماً بسكوت ركاب أعلى السفينة عن مخالفات من إعمال الثقب وكسر السفينة من أسفلها، والرسول ﷺ حذرنا من هذه المواقف؛ فعن حذيفة بن اليمان عن النبي ﷺ قال: «والذي نفسي بيده لتأمرن بالمعروف ولتنهون عن المنكر أو ليوشكن الله أن يبعث عليكم عقاباً منه فتدعونه فلا يستجيب لكم»[3].

---

(١) سورة الحاقة: ٣٠ ـ ٣٧.

(٢) تحفة الأحوذي، ج٦ ـ باب ما جاء في تغيير المنكر باليد وباللسان أو بالقلب، ص٣٩٣.

(٣) المصدر نفسه، باب ما جاء في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ص، ٣٩٠.

وحذرنا القرآن من هذه المواقف ﴿**وإذا أردنا أن نهلك قرية أمرنا مترفيها ففسقوا فيها فحق عليها القول فدمرناها تدميرًا**﴾[1]. ولو كان فيها الكثيرون لم يفسقوا، ولكن سكوتهن على الفسق جعلهم مستحقين للتدمير ﴿**واتقوا فتنة لا تصيبن الذين ظلموا منكم خاصة**﴾[2]. وما في هذا ظلم؛ فالأمة التي تشيع فيها الفاحشة ويُجهر فيها بالمنكر فلا تغيره أمةٌ منحلةٌ سائرةٌ إلى الدمار والزوال الذي يصيبها من العقاب، وهو أمر طبيعي، ونتيجة لازمة، عن أبي بكر الصديق - رضي الله عنه - أنه قال: « يا أيها الناس إنكم تقرأون هذه الآية ﴿**يا أيها الذين آمنوا عليكم أنفسكم لا يضركم من ضل إذا اهتديتم**﴾، وإني سمعت رسول الله ﷺ يقول: إن الناس إذا رأوا الظالم فلم يأخذوا على يديه أوشك أن يعمهم الله بعقاب منه»[3].

فالتقصير في الأمر بالمعروف والسكوت عن المنكرات يسبب للأمة الكوارث ويجلب الفتن والزلازل ولا يستجاب الدعاء، فتحرم الأمة من الخير والبركة والرحمة الإلهية التي تتنزل على عباد الله الصالحين.

وبيّن سبحانه أن الآمرين بالمعروف والناهين عن المنكر والمقيمين للصلاة والمؤتين للزكاة والمطيعين لله ورسوله هم أهل الرحمة؛ فقال سبحانه وتعالى ﴿**أولئك سيرحمهم الله**﴾[4].

---

(١) سورة الإسراء: ١٦.

(٢) سورة الأنفال: ٢٥.

(٣) تحفة الأحوذي ج٦، باب ما جاء في نزول العذاب إذا لم يغير المنكر.

(٤) سورة التوبة: ٧١.

والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر فرض كفاية، ومع ذلك قدمه الله تعالى على إقامة الصلاة وإيتاء الزكاة ﴿**والمؤمنون والمؤمنات بعضهم أولياء بعض يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر ويقيمون الصلاة ويؤتون الزكاة ويطيعون الله ورسوله أولئك سيرحمهم الله إن الله عزيز حكيم**﴾[1]. فقدم هنا الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر على إقامة الصلاة؛ لأن بتحقيقه تصلح الأمة، ويكثر فيها الخير، وتظهر فيها الفضائل، وتختفي منها الرذائل، ويتعاون أفرادها على الخير، ويتناصحون ويجاهدون في سبيل الله، ويأتون كل خير، ويذرون كل شر، وبالسكوت عن المنكر والتقصير بالمعروف تكون الكوارث العظيمة، وتفترق الأمة وتقسو القلوب، وتظهر الرذائل وتنتشر، وتختفي الفضائل، ويهضم الحق، ويظهر صوت الباطل، وهذا أمر واقع في كل مكان وفي كل دولة وكل بلد وكل قرية لا يؤمر فيها بالمعروف ولا ينهى فيها عن المنكر[2].

ولقد استحق بنو إسرائيل اللعنة على لسان أنبيائهم ودالت دولتهم وذهبت ريحهم؛ لأنهم لم يكونوا يغيرون المنكر ولم يكونوا يتناهون عنه ﴿**لعن الذين كفروا من بني إسرائيل على لسان داود وعيسى بن مريم ذلك بما عصوا وكانوا يعتدون * كانوا لا يتناهون عن منكر فعلوه لبئس ما كانوا يفعلون**﴾[3].

وفي الحديث «لما وقعت بنو إسرائيل في المعاصي نهتهم علماؤهم فلم ينتهوا فجالسوهم وواكلوهم وشاربوهم، فضرب الله قلوب بعضهم ببعض ولعنهم على لسان داود وعيسى بن مريم، ثم جلس وكان متكئاً فقال: لا والذي نفسي بيده حتى تأطروهم على الحق أطرا»[4].

---

(١) سورة التوبة: ٧١.

(٢) وجوب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، لسماحة الشيخ عبد العزيز بن عبد الله بن باز.

(٣) سورة المائدة: ٧٨، ٧٩.

(٤) تحفة الأحوذي، ج٨، باب تفسير سورة المائدة ص ٤١٢.

فليس هـــو مجرد الأمـــر والنهـي، ثم تنتهي المسـألـــة. إنما هي الإصرار، والمقاطعة، والكف بالقوة عـن الشر والفساد والمعصية والاعتداء ومنع استخدام الحرية الشخصيـة في مفهومهـا الخطأ؛ فقالوا: «لـو أنا خرقنـا في نصيبنا خـرقاً» وحتى لا تغرق سفينة الجماعـة، وتتوارد النصوص القرآنيـة والنبوية بأن التماسك في كيان الجماعة بحيث لا يقـول أحد فيها، وهو يـرى المنكر يقع من غيره: وأنا مـا لي؟ وهذه الحميـة ضـد الفساد في المجتمع بحيث لا يقـول أحـد وهو يـرى الفسـاد يشري ويشيع: وماذا أصنع والتعـرض للفساد يلحق بي الأذى؟! هـذه الغيرة على حـرمات الله والشعـور بـالتكلف المباشر بصيـانتهـا عنها للنجـاة من عقاب الله ومن الغرق، هذا كله هو قـوام الجماعة المسلمة الذي لا قيام لها إلا به «وإن أخـذوا على أيديهم نجـوا ونجوا جميعـاً». وهذا كلـه في حاجـة إلى الإيمان الصحيح بالله ومعرفة تكاليف هذا الإيمان ومعرفة أنه يشمل كل جوانب الحياة، وإلى الجد في أخذ العقيدة بـالقوة فالمجتمع المسلم الذي يستمد قانـونه ودستوره من شريعـة الله، هـــو المجتمع الـذي يسمح للمسلم أن يـزاول حقيقـــة الأمـر بـالمعـروف والنهي عن المنكـر، بحيث لا يصبح هـذا عمـلا فرديـا ضـائعـا في الخضم، أو يجعلـــه غير ممكن في كثير مـن الأحيـــان، كما هـــو الحال في بعض المجتمعـات القـائمـــة اليـوم في بعض البـلاد والتي تقيم حيـــاتها على تقـاليـد ومصطلحات اجتماعيـة (حرية الكلمة، الحريـة الشخصية، حرية الصحـافة) كما تجعل من الظلم والبطـش والاعتـداء والجور سيفـاً مسلطـاً من الإرهـاب، ويعقد الألسنة، وينكل بمن يقول كلمة حق أو معروف في وجه الطغيان.

إن كل النصـوص القرآنيـة التي بـرز فيها الأمـر بـالمعروف والنهي عن المنكـر كانت تتحدث عن واجب المسلم في مجتمع مسلم يتحـاكم إلى شريعة الله مع ما

وجد فيها من أخطاء في بعض الأحيان ومن شيوع الإثم في بعض الأحيان وفي مثل هذه البيئات الإسلامية يجتهد المؤمن فيأمر بالمعروف وينهى عن المنكر وتأخذه الغيرة أمام بعض المواقف المريبة، فيتحمس ويندفع ففي قصة عبادة ابن الصامت - رضي الله تعالى عنه - وهو مقيم في الشام في عصر معاوية - رضي الله تعالى عنه - لفتات جميلة نحو هذه القضية؛ فعن إسماعيل بن عبيد ابن رفاعة عن أبيه أن عبادة بن الصامت مرت عليه قطارة[1] وهو بالشام تحمل الخمر فقال: ما هذه؟ أزيت؟ قيل: لا، بل خمر يباع لفلان. فأخذ شفرة من السوق فقام إليها فلم يذر فيها راوية إلا بقرها - وأبو هريرة إذ ذاك بالشام - فأرسل فلان إلى أبي هريرة فقال: ألا تمسك عنا أخاك عبادة، أما بالغدوات فيغدو إلى السوق يفسد على أهل الذمة متاجرهم، وأما بالعشي فيقف في المسجد ليس له عمل إلا شتم أعراضنا وعيبنا! قال: فأتاه أبو هريرة فقال: يا عبادة ما لك ولمعاوية؟ ذره وما حمِّل. فقال: لم تكن معنا إذ بايعنا على السمع والطاعة والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر وألاّ يأخذنا في الله لومة لائم؟ فسكت أبو هريرة. وكتب فلان إلى عثمان أن عبادة أفسد عليه الشام[2].

رواية جميلة تصور مجتمع الصحابة وهم ركاب سفينة واحدة، سفينة تشق طريقها نحو النجاة، والكل حريص على سلامة السفينة، ويجتهد في حفظها ورعايتها، وهناك مجال للاجتهاد والاختلاف فمعاوية - رضي الله تعالى عنه - أمير البلاد مسئول عن المسلم والذمي ويرعى مصلحة الجميع، وعبادة بن الصامت - رضي الله تعالى عنه - من أجلاء الصحابة يتمتع بالغيرة على هذا الدين ويخاف أن تخرق سفينة النجاة على غفلة، وأبو هريرة - رضي الله تعالى

---

(١) القطارة والقطار: أن تشد الإبل على نسق واحد خلف واحد.

(٢) سير أعلام النبلاء، للذهبي، ج٢ ص١٠.

عنه - يتمتع بالهدوء وبمراعاة المصلحة، مصلحة الظروف والبيئة، وأخيراً تقدم كل هـذه الاختـلافـات إلى خليفـة المسلمين عثمان بـن عفـان فيحسم الخلاف بطلب عبادة بن الصامت إلى المدينة وتهدئة الجو.

هذا كله يحدث في مجتمع مسلم، مجتمع يعترف ابتـداءً بسلطان ويتحاكم إلى قرآنه، مجتمع يحتكم إلى إمام مسلم، أمـا المجتمعات التي لا تتحاكم إلى شريعة الله فالمنكـر الأكبر فيها، والأهم هو المنكـر الذي ينبع منـه كل المنكرات، وهي الآن تتمثل في الأنظمة الـوضعية السائدة، فـإنكار المنكر في مثل هـذه الظروف يتطلب دراسة الآية الكريمة ﴿**ادعُ إلى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة**﴾؛ لأنه لا جدوى من ضيـاع الجهد في مقاومة منكـرات هي مقتضيات ذلك المنكر الأول وثمراته النكدة.

على أنه إلام نحاكم الناس في أمر ما يـرتكبونه، وبأي ميزان نزن أعمالهم لنقول لهم إن هذا منكر فـاجتنبوه؟ فلا بد إذن من اتخاذ الحكمـة ولا بد من قيم معترف بها نقيس إليهـا المعروف والمنكر فمـن أين تستمد هـذه القيم؟ وهنا نعـرف قيمة قوله تعالى: ﴿**ادعُ إلى سبيل ربك بالحكمة**﴾، وفي مثل هذه الظروف لا بد من إقامة الميـزان ولا بد من إقامة وحدات وجماعات تسـاند بعضها البعض، وتسير في ضوء الكتاب والسنة، وتحمي أفرادهـا من الاختلاف والتناحر، وتوجههم إلى الحكمة والموعظـة الحسنة والأسوة الحسنة، ولا يتأتى هـذا إلا إذا اتخذت شريعة الله مصـدراً لها، لأنها هي الـوحيدة التي تجمـع الناس وتحكم الأهـواء، أمـا إذا ابتعد النـاس عن شريعة الله تعـالى أصبح كل امـرئ يتبع هواه وأهـواء الناس لا يضبطها ضـابط. وهذه الجماعـات والوحـدات تعد الأفـراد والمصلحين ووجود المصلحين في الأمة هو صمام الأمان لها وسبب نجاتها من الإهلاك العام فإن فقد هـذا الصنف من النـاس فإن الأمـة - وإن كـان فيهـا صـالحون - يحل عليهـا

عـذاب الله كلها صـالحهـا وفاسـدهـا؛ لأن الفئة الصـالحة سكتت عن إنكـار الخبث، وعطلت شريعـة الأمـر بـالمعـروف والنهي عن المنكـر فـاستحقت أن تشملها العقوبة. وهذا يدل على أن المجتمع كأصحاب السفينة تماما فإن الذين في أعلى السفينة إن تركـوا الذين في أسفلها ليخرقـوا في نصيبهم خرقاً وقـالوا هذه حـرية شخصيتـه لهم فليفعلـوا ما شـاءوا، فإن النتيجـة غـرق السفينة وهـلاك المجتمع، وإن أخذ الذين في الأعلى على أيدي الـذين في الأسفل وقالوا لهم ليس الإضرار بالملـك العام من الحريـة الشخصية، فـالنتيجة نجاة الجميـع، وهكذا حال المجتمع؛ فإن أهل الفساد الواقعين في حـدود الله يخرقون بمعاول انحرافهم في سفينـة المجتمـع فإن أخـذ المصلحـون على أيـديهم ومنعـوهم من الإضرار بالمجتمع نجـا الجميع وإن تركوهم في غيهم وتخاذلوا عن الإنكـار عليهم هكلوا قاطبة[1].

- ما يستفاد من الحديث:

١ - إن الأمر بـالمعروف والنهي عن المنكر جـزء من التكافل الـذي جعله الله تعـالى قـائما بين المؤمنين؛ إذ المؤمنـون متكـافلـون فيما بينهم. فمثـلا لا يجوز أن يكون هناك مسلم جائع والمسلمون يأكلون ملء بطونهم.

إن الأمـر بـالمعـروف والنهي عن المنكـر ضمانـة للبيئـة من التلـوث الفكـري والأخلاقي، وهذا النوع من التلوث لا يقل خطورة عن تلوث البيئة الجرثومية.

إن الأمر بـالمعروف والنهي عـن المنكر ضمانة مـن العقوبات الإلهيـة التي تحل بالمجتمعات إذا فشا فيها الفساد.

إن الله عز وجـل قد يبتلي المجتمع التـارك للأمر بـالمعروف والنهي عـن المنكر بأن يسلط عليهم عـدوا خارجيـا، فيؤذيهم، ويستبيح بيضتهم، كما حـدث في

(١) راجع: حتى لا تغرق السفينة، للشيخ سلمان عودة.

الأندلس، حيث تحولت عزة المسلمين وقوتهم ومنعتهم - لما شاعت بينهم المنكرات بلا نكير - إلى ذل وهوان، سامهم إياه النصارى.

٥-المسلمون التاركون لشعيرة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر عندما ينزل بهم العقاب يتجهون إلى الله عز وجل يدعونه، ولكنه لا يستجيب لهم، كما جاء في حديث حذيفة أن النبي ﷺ قال: « والذي نفسي بيده لتأمرن بالمعروف ولتنهون عن المنكر أو ليبعثن الله عليكم عقابا منه ثم لا يستجاب لكم».

٦-التقصير في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر قد تسبب الأزمات الاقتصادية في المجتمع، فتشكوا من الفقر والضيق، رغم وجود الوسائل المعيشية السهلة. ولقد وصلت الأزمات ببعض المجتمعات الإسلامية إلى حال من الفقر يرثى لها، رغم وجود الوسائل المعالجة لهذه الأزمات [١].

٧-المجتمع الإسلامي ينقسم إلى قسمين: قسم يسميه القرآن ﴿**المؤمنون والمؤمنات بعضهم أولياء بعض**﴾، وقسم آخر أشار إليه القرآن﴿**المنافقون والمنافقات بعضهم من بعض يأمرون بالمنكر وينهون عن المعروف**﴾. فأي الفئتين غلبت استطاعت أن تصبغ المجتمع بصبغتها، ولذلك كانت قضية الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر قضية يترتب عليها احتفاظ الأمة بمسارها الإسلامي.

٨-الحديث مثال بليغ، ضربه الرسول ﷺ لأولئك الذين أخطأوا الفهم (فهم الحرية) وصاروا في هذه الحياة الصاخبة حسب ميولهم وأهوائهم، ومثلا آخر رأوا المنكر فسكتوا عنه.

٩- من آداب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر أن يتصف الداعية بالصفات الآتية:

---

(١) راجع: حتى لا تغرق السفينة، للشيخ سلمان العودة.

١-العلم.

٢-الحلم.

٣-الصبر.

٤-العدل وحسن الخلق والحكمة. وكلمة الحكمة مطاطة تحمل في طياتها معاني جمة تتجدد كلما تجددت الظروف والأحوال.

- فقه الحديث:

١-أجمع أهل العلم على أن فريضة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر فرض عين أو كفاية، فذهب ابن حزم إلى أنه فرض عين لحديث أبي سعيد مرفوعا «من رأى منكم منكرا . . .». وعند جماهير أهل العلم أنه فرض كفاية. وهذا هو الصحيح؛ لقوله تعالى: ﴿**ولتكن منكم أمة يدعون إلى الخير ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر**﴾.

الحديث التاسع عشر: لكل نبي حواري

حدثني عمرو الناقد وأبو بكر بن النضر وعبد بن حميد واللفظ لعبد قالوا: حدثنا يعقوب بن إبراهيم بن سعد قال: حدثني أبي عن صالح بن كياس عن الحارث عن جعفر بن عبد الله بن الحكم عن عبد الرحمن بن المِسْوَر عن أبي رافع عن عبد الله بن مسعود أن رسول الله ﷺ قال: «**ما من نبي بعثه الله في أمَّة قبلي إلا كان له من أمته حَوَارِيُّون وأصحابٌ يأخذون بسنته ويَقتدون بأمره ثم إنها تخلُفُ من بعدهم خُلُوفٌ يقولون ما لا يفعلون، ويفعلون ما لا يؤمرون، فمن جاهدهم بيده فهو مؤمن، ومن جاهدهم بلسانه فهو مؤمن، ومن جاهدهم بقلبه فهو مؤمن، وليس وراء ذلك من الإيمان حَبَّةُ خَرْدَلٍ**».

- تخريج الحديث:

- صحيح مسلم بشرح النووي، ج٢ كتاب الإيمان - باب بيان كون النهي عن المنكر من الإيمان، ص٢٦، ٢٧.

- مسند الإمام أحمد بن حنبل، ج١ ص٤٥٨، ٤٦١.

- وقد خرج الحديث البخاري برواية جابر على النحو التالي: قال النبي ﷺ: «من يأتيني بخبر القوم يوم الأحزاب؟ فقال الزبير: أنا، ثم قال: من يأتيني بخبر القوم؟ قال الزبير: أنا. فقال النبي ﷺ: إن لكل نبي حواريًّا، وحواريي الزبير». فتح الباري، ج٦، كتاب الجهاد، باب فضل الطليعة، ص٥٢.

[الحديث أطرافه في: ٢٨٤٧، ٢٩٩٧، ٣٧١٩، ٤١١٣، ٧٢٦١].

ورواية البخاري وردت في صحيح مسلم كتاب فضائل الجهاد باب فضائل

طلحة والزبير، وأيضاً في صحيح سنن ابن ماجه - المقدمة - فضائل أصحاب رسول الله ﷺ ص٢٧ ، وأيضاً في مسند الإمام أحمد بن حنبل ج١ ص٨٩، ج٣ ص ٣٠٧ .

- والحديث المذكور برواية عبد الله بن مسعود والذي نحن بصدد دراسته، في إسناده طريفة وهو أنه اجتمع فيه أربعة تابعيين يروي بعضهم عن بعض صالح والحارث وجعفر وعبد الرحمن . وذكر الإمام الدارقطني - رحمه الله - في كتابه العلل أن هذا الحديث قد روي من وجوه أخر، منها عن أبي واقد الليثي عن النبي ﷺ .

وقد أفاض الإمام النووي في تخريج الحديث وذكر الأوجه المختلفة وآراء السلف . راجع شرح النووي ج٢ ص٢٨ .

- المعاني اللغوية:

الحواريون : الحواري : الناصر أو ناصر الأنبياء والحميم، وقال يونس بن الحبيب : الحواري : الخالص، وعن الكلبي الحوارى : الخليل .

وأما الحواريون المذكورون فاختلف فيهم، فقال الأزهري وغيره : هم خلصان الأنبياء وأصفياؤهم، والخلصان الذين نقوا من كل عيب . وقال غيرهم أنصارهم، وقيل المجاهدون وقيل الذين يصلحون للخلافة بعدهم . وسموا الحواريون لبياض ثيابهم .

(ثم إنها تخلف من بعدهم خلوف) : الضمير في (إنها) هو الذي يسميه النحويون ضمير القصة والشأن، ومعنى تخلف تحدث .

خُلُوفٌ : بضم الخاء وهو الخالف بشر، وأما بفتح الخاء خَلُوفٌ . فهو الخالف بخير.

- المعنى العام :

تحتاج الدعوة الإسلامية في مسيرتها الدائمة المتطورة المتجددة إلى رجال أقوياء يتمتعون بالإخلاص ويثبتون أمام المحن ويزدادون رسوخاً في الابتلاءات والملمات ولا يترددون لحظة واحدة لتحقيق معاني الجهاد وتحقيق الغايات السامية لرفع راية الإسلام ونشر الأخوة والمحبة بين الناس ويشقون طريقهم نحو الفداء والتضحية، وتعترض طريقهم العقبات والمنحنيات، فتصاب بعض النفوس بالوهن والضعف؛ رغبة في النجاة وحبًّا في الحياة، فتركن للراحة، وتنفر من الجهاد، وتصاب بأمراض حب الدنيا وكراهية الموت، والإسلام يعالج هذه الطبيعة البشرية ويهتف لها بالموجبات والمؤثرات. ﴿**يا أيها الذين آمنوا كونوا أنصار الله كما قال عيسى بن مريم للحواريين من أنصاري إلى الله قال الحواريون نحن أنصار الله فآمنت طائفة من بني إسرائيل وكفرت طائفة فأيدنا الذين آمنوا على عدوهم فأصبحوا ظاهرين**﴾(١). والقرآن في هذه الآية يصور حلقات الرسالة المترابطة التي يسلم بعضها إلى بعض وهي متماسكة في حقيقتها واحدة في اتجاهها ممتدة من السماء إلى الأرض حلقة بعد حلقة في السلسلة الطويلة المتصلة المليئة بدروب الابتلاءات والمحن، وبالفداء والتضحية، وفي كل الحالات الدعوة تحتاج إلى الخلص من المؤمنين، وإلى الفدائي المجاهد وإلى المؤمن المدافع يقف بجانب الأنبياء ومن يرثهم من العلماء والدعاة، وكلما ازدادت المحن وضاقت سبل الدعوة اشتدت الحاجة إلى الحواريين، وهذه سنة الله في الدعوات ﴿**فلما أحس عيسى منهم الكفر قال من أنصاري إلى الله قال الحواريون نحن أنصار الله آمنا بالله واشهد بأنا مسلمون**﴾(٢). من أنصاري إلى دين الله ودعوته ومنهجه ونظامه؟ من أنصاري

---

(١) سورة الصف: ١٤.

(٢) سورة آل عمران: ٥٢.

إلى الله للدفاع عن هذا الدين؟ وفي مثل هذه المواقف الحرجة كان رسول الله ﷺ يقول في أيام الحج: «من رجل يؤوني حتى أبلغ رسالة ربي؟ فإن قريشاً قد منعوني أن أبلغ رسالة ربي»، حتى قيض الله عز وجل له الأوس والخزرج من أهل المدينة فبايعوه ووازروه وشارطوه أن يمنعوه من الأسود والأحمر إن هو هاجر إليهم، فلما هاجر إليهم بمن معه من أصحابه وفوا له بما عاهدوا الله عليه، ولهذا سماهم الله ورسوله الأنصار، وصار ذلك علماً عليهم، رضي الله عنهم وأرضاهم[1]. وهو أحد معاني «الحواري».

وإلى هذه المواقف يشير ﷺ فيقول: «ما من نبي بعثه الله في أمة قبلي إلا كان له من أمته حواريون وأصحاب يأخذون بسنته ويقتدون بأمره...».

وحواري الرسول ﷺ وأصحابه امتازوا بمحبته بصفة لم يشهد لها التاريخ مثيلاً في سيرة الأنبياء والرسل، ويتجلى ذلك من خلال الآيات التالية: فحواريو عيسى بن مريم يقول عنهم القرآن: ﴿**إذ قال الحواريون يا عيسى بن مريم هل يستطيع ربك أن ينزل علينا مائدة من السماء قال اتقوا الله إن كنتم مؤمنين * قالوا نريد أن نأكل منها وتطمئن قلوبنا ونعلم أن قد صدقتنا ونكون عليها من الشاهدين * قال عيسى بن مريم اللهم ربنا أنزل علينا مائدة من السماء تكون لنا عيدًا لأولنا وآخرنا وآية منك وارزقنا وأنت خير الرازقين**﴾[2].

ويكشف لنا هذا الحوار عن طبيعة قوم عيسى المستخلصين منهم وهم الحواريون فإذا بينهم وبين أصحاب رسول الله ﷺ فرق بعيد؛ فأصحاب محمد ﷺ لم يطلبوا منه خارقة واحدة بعد إسلامهم لقد آمنت قلوبهم واطمأنت منذ أن خالطتها بشاشة الإيمان، ولقد صدقوا رسوله ولم يعودوا يطلبون على صدقه

---

(١) تفسير ابن كثير، م٤، سورة الصف ص٥٦٥.

(٢) سورة المائدة: ١١٢ ـ ١١٤.

البرهـان، ولقد شهـدوا له بـلا معجزة إلا هـذا القـرآن وكانـوا يأخذون بسنتـه، ويقتدون بأمـره، ويستميتون في محبته، وامتازت مجمـوعة منهم بمحبة الـرسول ﷺ محبة الحواريين لأنبيائهم؛ عـن عبادة بن الصامت. قال: «خلـوت برسول الله ﷺ فقلت: أي أصحابك أحب إليك حتى أحبهم؟ قـال: اكتم عليّ حياتي أبو بكـر الصديق ثم عمر. ثم علي. ثم سكت، فقلت: ثم من يـا رسول الله؟ قال: من عسى أن يكون إلا الـزبير وطلحة وسعد وأبو عبيدة ومعـاذ وأبو طلحة وأبو أيوب وأنت يا عبادة. . . »[1].

ولما كانت كلمـة الحواري عميقة الدلالـة واسعة المفـاهيم اختلف في تأويلها اللغـويـون، فمنهم من قـال: هم خلصـان الأنبيـاء وأصفيـاؤهم، ومنهم من قال: هم المجاهـدون، وقيل: الذين يصلحون للخلافة. ونظـراً لأهمية الكلمة وخطـورة المعنى ظل النبي ﷺ يـوضح مفـاهيمهـا في منـاسبـات عـديـدة وفي المواقف الحرجـة الشديـدة، فقـد مرت مسيرة الـدعـوة بالمراحل الصعبـة، ومن أبرزهـا غزوة الأحزاب حيث صـور القرآن الموقف ﴿**إذ جاءوكم من فوقكم ومن أسفل منكم وإذ زاغت الأبصار وبلغت القلوب الحناجـر وتظنون بالله الظنونا * هنالك ابتلي المؤمنون وزلزلوا زلزالاً شديدًا**﴾[2].

الآيات تصـور الهول الذي روع المدينة والكرب الـذي أحاط بها، ولم ينج من ذلك أحد من أهلها، وقد أطبق عليها المشركون من قريش وغطفان واليهود من بني قـريظـة، من كل جـانب، من أعلاهـا ومن أسفلهـا فلم يختلف الشعـور بـالكـرب والهول في قلب عن قلب، وإنما الـــذي اختلف هـو استجـابـة هـذه القلوب وظنها بـالله وثباتها في الشدة وتصوراتها للقيم والأسبـاب والنتائج، ومن

(١) سير أعلام النبلاء، ج٢ ص٦، إسناده ضعيف.
(٢) سورة الأحزاب: ١٠، ١١.

ثم كان الابتلاء كاملاً والامتحان دقيقاً ﴿**وإذا زاغت الأبصار وبلغت القلوب الحناجر**﴾ وهو تعبير دقيق يصور الخوف والكرب والضيق ﴿**وتظنون بالله الظنونا**﴾ تعبير يرسم حالة الاضطراب في المشاعر والخوالج وذهابها كل مذهب.

في مثل هذه الظروف قال النبي ﷺ: «من يأتيني بخبر القوم يوم الأحزاب؟ فقال الزبير: أنا. ثم قال: من يأتيني بخبر القوم؟ قال الزبير: أنا. فقال النبي ﷺ: إن لكل نبي حواريًّا وحواريي الزبير».

الموقف والهول والظروف الحرجة التي وقف فيها النبي ﷺ في يوم الأحزاب، كثيراً ما تمر الدعوة الإسلامية بمثل هذه المواقف أو قريباً منها، فعلى القائد أن يختار ويكلف مهام الأمور إلى شخص تتمثل فيه معاني الحواري، الحواري الذي تربى بين أحضان الدعوة، وتلقى الجرعات المطلوبة لتحمل أعباء الدعوة، كما تلقى هذه الجرعات الزبير بن العوام - رضي الله تعالى عنه - منذ نعومة أظفاره.

وفي رواية وهب بن كيسان عن جابر عند السناني «لما اشتد الأمر يوم بني قريظة قال رسول الله ﷺ: من يأتينا بخبرهم؟» وفيها أن الزبير توجه إلى ذلك ثلاث مرات.

وفي وقت بلغ المسلمين أن بني قريظة من اليهود نقضوا العهد الذي كان بينهم وبين المسلمين ووافقوا قريشاً على حرب المسلمين[1]. ثم تزيد سمات الموقف بروزا وتزيد خصائص الهول فيها وضوحاً ﴿**هناك ابتلي المؤمنون وزلزلوا زلزالا شديدًا**﴾[2]. قال محمد بن مسلمة وغيره: كان ليلنا بالخندق نهاراً، وكان

(١) فتح الباري، كتاب الجهاد، باب فضل الطليعة، ٦/ ٥٢ ـ ٥٣.
(٢) سورة الأحزاب: ١١.

المشركون يتناوبون بينهم فيغدو أبو سفيان بن حرب في أصحابه يوما، يغدو عمرو بن العاص يوماً، ويغدو خالد بن الوليد يوما، يغدو عمرو بن العاص يوما، ويغدو هبيرة بن وهب يوماً، يغدو عكرمة بن أبي جهل يوماً، ويغدو ضرار بن الخطاب يوماً، حتى عظم البلاء وخاف الناس خوفاً شديداً»[1]. في مثل هذه الظروف ندب النبي ﷺ الناس - قال صدقة - أظنه يوم الخندق، فانتدب الزبير، ثم ندب الناس فانتدب الزبير فقال النبي ﷺ: إن لكل نبي حواريا وحواريي الزبير بن العوام»[2].

هذا هو حواري رسول الله ﷺ وابن عمته صفية بنت عبد المطلب وأحد العشرة المشهود لهم بالجنة، وأحد الستة أهل الشورى قد عُرف منذ صغره بالجرأة والنصرة. «عن عروة قال: أسلم الزبير ابن ثماني سنين، ونفحت نفحة من الشيطان أن رسول الله ﷺ أخذ بأعلى مكة فخرج الزبير وهو غلام ابن اثنتي عشرة سنة بيده السيف فمن رآه عجب، حتى أتى النبي ﷺ فقال: ما لك؟ قال أخبرت أنك أخذت. قال: فكنت صانعاً ماذا؟ قال: كنتُ أضرب به من أخذك. فدعا له ولسيفه»[3].

رواية تصور شخصية الزبير ونشأته على الجرأة والنصرة ومحبته للرسول ﷺ إلى درجة الهيام والولاء، مما جلب انتباه الرسول ﷺ فيدعو له ولسيفه. وبدأ يقترب إلى معاني الحواري ومفاهيم الخالص والخليل، وأثبتت الأيام والمواقف أنه كان - رضي الله عنه - رجل الملمات والمواقف. ولقد كان أشد الكرب على المسلمين وهم محصورون بالمشركين داخل الخندق، ذلك الذي كان يجيئهم من انتقاض

---

(١) في ظلال القرآن: سورة الأحزاب ٥/ ٢٢٣٧.

(٢) فتح الباري، كتاب الجهاد، باب هل يبعث الطليعة وحدهم؟

(٣) سير أعلام النبلاء ج١، الزبير بن العوام ص٤١ ـ ٤٥.

بني قريظة عليهم من خلفهم، فلم يكونوا يأمنون في أية لحظة أن ينقض عليهم المشركون من الخندق، وأن تميل عليهم يهود وهم قلة بين هذه الجموع التي جاءت بنية استئصالهم في معركة حاسمة أخيرة.

- نشاط حواري الرسول في هذه المعركة الحاسمة:

أخبرنا هشام بن عروة عن أبيه عن عبد الله بن الزبير قال: «كنت يوم الأحزاب جُعِلتُ أنا وعمر بن سلمة في النساء، فنظرت فإذا أنا بالزبير على فرسه يختلف إلى بني قريظة مرتين أو ثلاثاً فلما رجعتُ قلت. يا أبت رأيتك تختلف. قال: أوهل رأيتني يا بني؟ قلت: نعم. قال: قال رسول الله ﷺ: من يأتي بني قريظة فيأتيني بخبرهم؟ فانطلقت فلما رجعت جمع لي رسول الله ﷺ أبويه فقال: فداك أبي وأمي»(١). «فداك أبي وأمي» ليست هذه الكلمة تقال، ولكنها مرتقى عالٍ، ومرتبة سامية لم ينلها إلا الخلص من الصحابة. وهم الحواريون.

وممن نال هذه المرتبة السامية سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه، فعن عامر ابن سعد عن أبيه «أن رسول الله ﷺ جمع له أبويه؛ قال: كان رجل من المشركين قد أحرق المسلمين، فقال رسول الله ﷺ: «إن فداك أبي وأمي، فنزعت بسهم ليس فيه نصل فأصبت جبهته فوقع وانكشف عورته، فضحك رسول الله ﷺ حتى بدت نواجذه»(٢).

- الفرق بين قصة الزبير وقصة حذيفة رضي الله عنهما:

كانت قصة الزبير موجهة لكشف بني قريظة وبيان نقضهم للعهد من عدمه، وكانت قصة حذيفة لما اشتد الحصار على المسلمين بالخندق وتمالأت

---

(١) فتح الباري ج٧، كتاب فضائل الصحابة، باب مناقب الزبير بن العوام ص٨٠.
(٢) سير أعلام النبلاء ج١ ص٩٩ (ترجمة سعد بن أبي وقاص).

عليهم الطوائف، ثم وقع بين الأحزاب الاختلاف، وحذرت كل طائفة من الأخرى، وأرسل الله عليهم الريح واشتد البرد تلك الليلة، فانتدب النبي ﷺ من يأتيه بخبر قريش فانتدب له حذيفة بعد تكراره طلب ذلك. وقصته في ذلك مشهورة(١).

والعلامة ابن حجر - رحمه الله - وضح الموقف لئلا يلتبس على القارئ، وفي الوقت نفسه الرؤية توضح أن ولاية النبي ﷺ ولاية عامة تشمل رسم منهج الحياة بحذافيرها. والنبي ﷺ خص الزبير - رضي الله عنه - بهذه الكلمة «حواريي الزبير» إلا أن المواقف الأخرى تدل على أن العشرة المبشرين تشملهم معاني النصرة؛ فعن أبي هريرة «أن رسول الله ﷺ كان على حراء فتحرك فقال: اسكن حراء! فما عليك إلا نبي أو صديق أو شهيد». وكان عليه أبو بكر وعمر وعثمان وطلحة والزبير(٢).

ويؤيد ذلك ما ورد في ترجمة طلحة عن النبي ﷺ «طلحة والزبير جاراي في الجنة».

والدارس لهذه المواقف المشهورة يدرك أبعاد كلمة الحواري، ويتبين معالمها ويعرف أسرارها وأغوارها، وأكثر من يحتاج إلى العناية بهذه المفاهيم هم العلماء والدعاة والمربون، لأن الدعوة الإسلامية تحتاج إلى إعداد الحواريين ليقدموا نماذج حية في الأسوة والقدوة؛ لأن القدوة العملية أقوى وأشد تأثيراً في نشر المبادئ والأفكار لأنها تجسيد وتطبيق عملي لها، ويسهل مشاهدتها والتأثر والاقتداء بها، ولأن الحواريين يأخذون بسنة الرسول ﷺ ويقتدون بأمره.

---

(١) فتح الباري ج ٧، كتاب المغازي، باب غزوة الخندق ـ الأحزاب ص٤٠٧.

(٢) سير أعلام النبلاء، ج١ ص٥٤ (ترجمة الزبير بن العوام). وصحيح مسلم بشرح النووي ج١٥ (فضائل طلحة والزبير رضي الله عنهما).

وهـذه النماذج من الـرعيـل الأول والسـابقين الأولين والعشرة المبشرين من الحواريين والناصريـن نماذج حية للقـدوة الحسنة، وكان ﷺ يـركز على تـربيتهم وإعدادهم لحث أمته على الاقتداء بأهل الخير والصـلاح، وهو أمر مطلوب من الدعاة؛ قال تعالى: ﴿**لقد كان لكم في رسول الله أسـوة حسنة لمن كان يرجو الله واليوم الآخر وذكر الله كثيرًا**﴾(١).

وهـذه الأسوة تتمثل أيضـاً في إعداد الحواريين، والقـرآن يشير إليهم: ﴿**لقد كان لكم فيهم أسوة حسنـة لمن كان يرجو الله واليوم الآخـر ومن يتول فإن الله هو الغني الحميد**﴾(٢).

- مهمة الحواريين عند الفتن:

ومن سنن الـدعـوات أن مسيرتها تمر بـالفتـن والمحن وتبتلى من أصـدقـائهـا وأعـدائهـا، وحـرص الـرسـول ﷺ على إرشـاد المسلمين إلى هـذه المتغيرات والحوادث، فقـال: «ثم إنها تخلف من بعـدهم خلـوف يقـولون مـا لا يفعلـون ويفعلون مـا لا يؤمـرون». فما مهمة الحواري؟ القـدوة الحسنة والإيمان التطبيقي والإخـلاص والفـداء التي هي أبـرز صفـات الحواريين، هي التي تحتـاج إليهـا الـدعـوة في مثل هذه الظـروف، ولأهميـة القـدوة العملية في الإسـلام حـذر الله المؤمنين من أن تخالف أعمالهم أقـوالهم فقـد قال تعـالى: ﴿**يـا أيها الذين آمنـوا لم تقولـون ما لا تفعلـون * كبر مقتًا عنـد الله أن تقولـوا ما لا تفعلـون**﴾(٣). وقال تعـالى: ﴿**أتأمـرون النـاس بـالبر وتنسـون أنفسكم وأنتم تتلـون الكتـاب أفـلا**

---

(١) سورة الأحزاب: ٢١.
(٢) سورة الممتحنة: ٦.
(٣) سورة الصف: ٢، ٣.

تعقلون﴾[1]. ومن كل ما سبق نرى أهمية القدوة العملية ومدى الحاجة لإعداد الحواري، وكيف أنها وسيلة فعالة في مجال الخير والعمل الصالح.

«فمن جاهدهم بيده...» في مثل هذه الظروف فهو مؤمن، ولكن هذا الجهاد يتطلب اتخاذ الحكمة والموعظة الحسنة أسلوباً عمليًّا. وإلى هذا يشير الإمام النووي: وفي هذا الحديث الحث على جهاد المبتلين باليد واللسان، فذلك حيث لا يلزم منه إثارة الفتنة[2].

- فقه الحديث:

من واجبات العلماء والدعاة أن يعدوا من ينوب عنهم في الملمات والمحن، وأن يربوهم على أن يأخذوا بسنة الرسول ﷺ ويقتدوا بأمره في كل الحالات، وفي جميع المجالات أسوة بالرسول ﷺ ﴿**لقد كان لكم في رسول الله أسوة حسنة لمن كان يرجو الله واليوم الآخر**﴾، كل على قدر طاقته وحسب ظروفه.

- ما يستفاد من الحديث:

١ - الحديث يطلب من الدعاة أن يقتدوا برسول الله ﷺ اقتداء متكاملاً، فلا يجوز أن يقتدى به في بعض الجوانب ويخالفه في جوانب أخرى، وعلى العاملين في حفل الدعوة الإسلامية والذين يتصدرون للدعوة إلى الله أن يهتموا بإعداد القدوة الحسنة على هدي الرسول ﷺ وسنته.

٢ - والحديث يشير إلى تصنيف الدعاة وتكليف كل واحد حسب طاقته ومواهبه؛ فقد امتاز الزبير بن العوام - رضي الله تعالى عنه - بالجرأة والإقدام فكلف بمهمة كشف أسرار العدو.

---

(١) سورة البقرة: ٤٤.

(٢) صحيح مسلم بشرح النووي، ص ٢٨ (وجوب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر).

٣ - الحديث يشير إلى مشروعية تقسيم الأعمال وتصنيف الدعاة كل حسب إخلاصه وفدائيته وتضحيته، كما تسمي بعض الجماعات أعضاءها العاملين باسم المراقب والنقيب والعضو والمرتبط والمتفق، وما إلى ذلك.

obeikandl.com

حدثنا عمرو بن زُرارة أخبرنا عبد العزيز بن أبي حازم عن أبيه عن سهل قال رسول الله ﷺ : «**وأنا وكافل اليتيم في الجنة هكذا . وأشار بالسبابة والوسطى وفرَّج بينهما شيئاً**» .

- تخريج الحديث:

- فتح الباري بشرح صحيح البخاري : ج٩ كتاب الطلاق ، باب اللعان، ح٥٣٠٤ ص ٣٤٩، ج١٠ كتاب الأدب، باب فضل من يعول يتيماً ، ح٦٠٠٥ ص٤٥٠ .

- صحيح مسلم بشرح النووي : ج١٨ كتاب الزهد والرقائق، باب الإحسان إلى الأرملة والمسكين واليتيم، ح٤٢ - (٢٩٨٣) ص١٥٠ .

- عون المعبود شرح سنن أبي داود : م٧ ج١٤ كتاب الأدب ، باب من ضم يتيماً، ح٥١٣٩ ص٤١ .

- تحفة الأحوذي بشرح جامع الترمذي : ج٦ أبواب البر والصلة، باب ما جاء في رحمة اليتيم، ح١٩٨٣ ص٣٩ . وقال : هذا حديث حسن صحيح .

- شرح الزرقاني على موطأ الإمام مالك : ج٤ كتاب الجامع، السنة في الشَّعر، ح١٨٣٢ ص٤٢٩ .

- مسند الإمام أحمد بن حنبل : ج٢ ص٣٧٥، ح٨٩٠٣، ح٥ ص٣٣٣ ح٢٢٨٨٦ .

- الرواي:

سهل بن سعد بن سعد بن مالك بن خالد بن ثعلبة، الإمام الفاضل المعمّر بقية أصحاب رسول الله ﷺ، أبو العباس الخزرجي الأنصاري الساعدي، وكان أبوه من الصحابة الذين توفّوا في عهد النبي ﷺ .

كان سهل يقول: شهدت المتلاعنين عند رسول الله ﷺ وأنا بن خمس عشرة سنة وهذه إشارة قيمة يستفاد بها في معالجة قضية مهمة اختلف فيها الباحثون. هل كان المتلاعنان هلال بن أمية وزوجته أم عويمر العجلاني وزوجته. وكان اسم سهل بن سعد حزناً فغيره النبي ﷺ. وله عدة أحاديث وحدث عنه ابنه العباس، وأبو حازم الأعرج، وعبد الله بن عبد الرحمن بن الحارث بن أبي ذباب، وابن شهاب الزهري، ويحيى بن ميمون الحضرمي، وغيرهم. ومن الأحاديث المهمة التي رواها سهل حديث الاستئذان الآتي: حدثنا سفيان عن الزهري عن سهل بن سعد سمعه يقول: اطلع رجل من حُجر في حجرة النبي ﷺ ومع النبي ﷺ مدرى يحك به رأسه فقال: «لو أعلم أنك تنظرني لطعنت به في عينك، إنما جعل الاستئذان من أجل النظر» متفق عليه.

وهو آخر من مات بالمدينة من الصحابة، وكان من أبناء المائة[1].

- المعاني اللغوية:

الكافل: الجمع كُفل: الضامن، القائم بأمر اليتيم، العائل.

اليتيم: المعزز من كل شيء، يُقال: بيت وبلد يتيم، كل شيء يعزّ نظيره، الجمع: أيتام ويتامى، ويتمة ويتائم: من فقد أباه، ولم يبلغ مبلغ الرجال.

وقال القرطبي: اليتامى: جمع يتيم مثل ندامى جمع نديم، واليتم في بني آدم بفقد الأب، وفي البهائم بفقد الأم. وحكى الماوردي أن يتيم يقال في بني آدم بفقد الأم، والأول المعروف. وأصله الانفراد، يُقال: صبي يتيم: منفرد من أبيه. وبيت يتيم أي ليس قبله ولا بعده شيء من الشّعر. ويُقال: يَتُم يَيْتُم يُتْمًا، مثل عَظُمَ يَعْظُم، وأيضا يأتي مثل سَمِعَ يَسْمَعُ، يَتِم يَيْتَم. ذكر الفراء وقد أيْتَمه الله. ويدل هذا على الرأفة باليتيم والحض على كفالته وحفظ ماله[2].

---

(١) راجع ترجمته في سير أعلام النبلاء، ج٣ ص٤٢٢ ـ ٤٢٤.

(٢) القرطبي: ج٢ ص١٤، سورة البقرة.

- المعنى العام :

يعد التكافل الاجتماعي قاعدة أساسية في المجتمع الإسلامي، والجماعة المسلمة مكلفة بأن ترعى مصالح الضعفاء والأرامل والمساكين واليتامى. والدارس للآيات والأحاديث يدرك أن التركيز على اليتامى أكثر، وهم أولى الناس برعاية الجماعة وحمايتها وعطفها ورعايتها لنفوسهم وحمايتها لأموالهم.

ولقد كان بعض الأوصياء في عصر النبوة يخالطون طعام اليتامى بطعامهم وأموالهم بأموالهم للتجارة فيهما جميعاً، وكان الغبن يقع أحياناً على اليتامى، فحذر القرآن من أكل أموال اليتيم، وقال: ﴿**إن الذين يأكلون أموال اليتامى ظلماً إنما يأكلون في بطونهم ناراً وسيصلون سعيراً**﴾[1]. روي أنها نزلت في رجل من غطفان يقال له مرثد بن زيد ولي مال ابن أخيه وهو يتيم صغير فأكله، فأنزل الله تعالى فيه هذه الآية، قاله مقاتل بن حيان. ولهذا قال الجمهور: إن المراد الأوصياء الذين يأكلون ما لم يُبح لهم من مال اليتيم[2].

والإسلام كان ولا يزال يعالج الوقائع والقضايا التي تمس متطلبات الأمة الإسلامية وتذلل العقبات وتقرب النفوس وتحجب الأرواح والقلوب لتكون البيئة متآلفة متآخية، فكان من الأهمية بمكان العناية بمصالح اليتيم. قال تعالى: ﴿**وآتوا اليتامى أموالهم ولا تتبدلوا الخبيث بالطيب ولا تأكلوا أموالهم إلى أموالكم إنه كان حوبًا كبيراً**﴾[3].

وهذه الآية خطاب للأولياء والأوصياء، نزلت - في قول مقاتل والكلبي - في رجل من غطفان كان معه مال كثير لابن أخ له يتيم، فلما بلغ اليتيم طلب المال

---

(١) سورة النساء: ١٠.

(٢) الجامع لأحكام القرآن، للقرطبي، ج٥ ص٥٣.

(٣) سورة النساء: ٢

فمنعه عمه، فنزلت فقال العم: نعوذ بالله من الحوب الكبير (الإثم الكبير) ورد المال. فقال النبي ﷺ: «من يوق شح نفسه ورجع به هكذا فإن يحل داره» يعني جنته. فلما قبض الفتى المال أنفقه في سبيل الله، فقال عليه الصلاة والسلام: «ثبت الأجر وبقي الوزر. فقيل: كيف يا رسول الله؟ فقال: ثبت الأجر للغلام وبقي الوزر على والده لأنه كان مشركاً»(١).

هكذا كان الإسلام يتابع الأحداث والوقائع ويعالجها أمام مسمع من الناس ليكون دستوراً للأمة ونبراساً للبشرية تستنير بنورها وتستمر على منوالها.

والإسلام يريد بذلك أن يبعث روح التآخي والتكافل بين المسلمين ويحملهم مسئولية رعاية الضعفاء والأيتام والمساكين. قال تعالى: **﴿ولا تقربوا مال اليتيم إلا بالتي هي أحسن حتى يبلغ أشده وأوفوا الكيل والميزان بالقسط لا نكلف نفسًا إلا وسعها وإذا قلتم فاعدلوا ولو كان ذا قربى وبعهد الله أوفوا ذلكم وصاكم به لعلكم تذكرون﴾**(٢).

وكان المجتمع المدني ينتظر القيم الجديدة ويريد أن يتبين معالمها وأحكامها ويتلقاها برحابة الصدر. قال عطاء بن السائب عن سعيد بن جبير عن ابن عباس قال: لما أنزل الله **﴿ولا تقربوا مال اليتيم إلا بالتي هي أحسن﴾** و**﴿إن الذين يأكلون أموال اليتامى ظلمًا﴾** الآية. فانطلق من كان عنده يتيم فعزل طعامه من طعامه وشرابه من شرابه، فجعل يفضل الشيء فيحبس له حتى يأكله أو يفسد فاشتد ذلك عليهم فذكروا ذلك لرسول الله ﷺ فأنزل الله **﴿ويسألونك عن اليتامى قل إصلاح لهم خير وإن تخالطوهم فإخوانكم﴾** قال: فخلطوا طعامهم بطعامهم وشرابهم بشرابهم. رواه أبو داود. وقوله تعالى:

---

(١) الجامع لأحكام القرآن، للقرطبي، ج٥ ص٨.

(٢) سورة الأنعام: ١٥٢.

﴿**حتى يبلغ أشده**﴾ قال الشعبي ومالك وغير واحد من السلف: يعني حتى يحتلم[1].

آية واحدة تعالج أكثر من مشكلة وتشتمل على أكثر من معنى تربوي: من مشكلة اليتيم، ومن أمانة الكيل والميزان، ومن مسؤولية العدل في القول والعمل، ومن صلة الرحم وإيفاء الوعد. كلها قضايا حية كانت تحدث وتقع، فينتظر الناس ما الحكم الجديد في هذه القضية، وكيف يعالج القرآن هذه المسائل، ومن أبرزها مشكلة مال اليتيم، والرواية تسجل مدى حب الناس واهتمامهم لتنفيذ الأوامر الربانية، فسرعان ما استجابوا وعزلوا طعام اليتيم من طعامهم، ولم تطب لهم الحياة حتى نزلت آية كريمة ﴿**وإن تخالطوهم فإخوانكم**﴾. ورعاية اليتيم وكفالته من الوسائل الفعالة لترويض النفوس على تفهم معاني الأمانة والرحمة، وخطى الإسلام خطوة أخرى فحث الناس على الإنفاق في مجالات العناية بالأيتام قال تعالى: ﴿**يسألونك ماذا ينفقون قل ما أنفقتم من خير فللوالدين والأقربين واليتامى والمساكين وابن السبيل وما تفعلوا من خير فإن الله به عليم**﴾[2].

ولقد وردت آيات كثيرة في الإنفاق سابقة على هذا السؤال، ولكن ذكر الإنفاق في هذه الآية يشير إلى الظروف التي نشأ فيها المسلمون من جهاد وخروج في سبيل الله. فالأمر بالإنفاق على اليتيم ضرورة للأخذ بيد اليتيم، هذا من ناحية، ومن ناحية أخرى فهو تشجيع وحث للمجاهد الذي يترك أهله وأولاده وينطلق نحو ساحة المعركة غير مبال ولا مكترث بالذرية الضعاف، ويدفعه قوله ﷺ عن أبي هريرة: «الساعي على الأرملة والمسكين كالمجاهد في سبيل الله

(١) تفسير ابن كثير: ج٢ ص٣٠٣ سورة الأنعام.
(٢) سورة البقرة: ٢١٥.

- وأحسبه قال - وكالقائم لا يفتر وكالصائم لا يفطر». فالعناية باليتيم ورعايته بهذه الصورة المثالية أكبر حافز على الجهاد، ووسيلة مباركة لتثبيت نفوس المجاهدين في ميدان الجهاد. عن أبي هريرة أيضاً قال: قال رسول الله ﷺ: «كافل اليتيم له أو لغيره أنا وهو كهاتين في الجنة»(١).

كافل اليتيم القائم بأموره من نفقة وكسوة وتأديب وتربية وغير ذلك، وهذه الفضيلة تحصل لمن كفله من مال نفسه أو من مال اليتيم بولاية شرعية. أما قوله (له أو لغيره) فالذي له أن يكون قريباً له كجده وأمه وأخته وعمه وخاله وعمته وخالته وغيرهم من أقاربه والذي لغيره أن يكون أجنبيًّا(٢).

ورعاية أمور اليتيم تشمل كل احتياجاته التي يحتاجها، ومن ذلك حسن تربيته وتعليمه وما يناسبه من صنعة أو حرفة وتشمل كفالته ورعايته أيضاً الاهتمام بماله والبحث في طرق تنميته، وعدم الإسراف فيه، كما تتناول جميع معاني العناية المعنوية والنفسية والتربوية من مسح الرأس وتطييب الخاطر وتقبيل الجبين. ويقيم الإسلام لهذه اللفتة التربوية الحانية وزناً كبيراً، عن عكرمة عن ابن عباس أن نبي الله ﷺ قال: «من قبض يتيماً من بين المسلمين إلى طعامه وشرابه أدخله الله الجنة البتة إلا أن يعمل ذنباً لا يغفر»(٣). والمعنى من يضم اليتيم إليه ويطعمه «أدخله الله الجنة البتة» أي إدخالاً قاطعاً بلا شك ولا شبهة «إلا أن يعمل ذنباً لا يغفر» المراد منه الشرك لقوله تعالى: ﴿**إن الله لا يغفر أن يشرك به ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء**﴾.

---

(١) صحيح مسلم بشرح النووي، ج١٨ كتاب الزهد، باب فضل الإحسان إلى الأرملة والمسكين واليتيم ص١١٣.

(٢) المصدر نفسه.

(٣) تحفة الأحوذي بشرح جامع الترمذي، باب ما جاء في رحمة اليتيم، م٦ ص٤٤.

ودرس العلماء هذه الأحاديث المتعلقة برعاية اليتيم، وحديث سهل بن سعد المذكور دراسة شاملة، ثم قال ابن بطال: حق على من سمع هذا الحديث أن يعمل به ليكون رفيق النبي ﷺ في الجنة ولا منزلة في الآخرة أفضل من ذلك. وقال ابن حجر العسقلاني: ويكفي في إثبات قرب المنزلة من المنزلة أن ليس بين الوسطى والسبابة إصبع أخرى، ويحتمل أن يكون المراد قرب المنزلة حال دخول الجنة، لما أخرجه أبو يعلى من حديث أبي هريرة رفعه: «أنا أول من يفتح باب الجنة، فإذا امرأة تبادرني فأقول: من أنت؟ فتقول: أنا امرأة تأيمت على أيتام لي». ويحتمل أن يكون المراد مجموع الأمرين: سرعة الدخول وعلو المنزلة[1].

ومن اهتمام الإسلام بقضايا اليتيم أنه ذكر أيضاً موقف من يسيء إلى اليتيم ويأكل من ماله ويتعامل معه معاملة القسوة والشدة أن له عذاباً أليماً تقشعر منه الأبدان. روى أبو سعيد الخدري قال: حدثنا النبي ﷺ عن ليلة أسري به قال: «رأيت قوماً لهم مشافر كمشافر الإبل وقد وكل بهم من يأخذ بمشافرهم ثم يجعل في أفواههم صخراً من نارٍ يخرج من أسافلهم، فقلت: يا جبريل من هؤلاء؟ قال: هم الذين يأكلون أموال اليتامى ظلماً».

والدارس لهذه الآيات والأحاديث يدرك أن الإسلام اهتم برعاية اليتيم وكفالته والعناية بشأنه اهتماماً بالغاً، وكأن الإسلام جند المسلمين جميعاً للقيام بحق اليتامى والتقرب إلى الله بالعطف عليهم، ونيل أعظم الدرجات بسبب البذل لهم، والقيام بما يحتاجون إليه من رحمة وحسن تربية.

- فقه الحديث:

- قال القاري في المرقاة: إن حق العباد لا يغفر بمجرد ضم اليتيم البتة، مع

---

(١) فتح الباري، م١٠، كتاب الأدب، باب فضل من يعول يتيما، ص ٤٣٦.

أن من جملة حقوق العباد أكل مال اليتيم، نعم يكون تحت المشيئة فالتقدير إلا أن يعمل ذنباً لا يغفر إلا بالتوبة أو بالاستحلال أو نحوه. وحاصله أن سائر الذنوب التي بينه وبين الله تغفر إن شاء الله[1].

- دل الكتاب والسنة على أن أكل مال اليتيم من الكبائر، وقال ﷺ: «اجتنبوا السبع الموبقات» وذكر فيها «وأكل مال اليتيم»[2].

- ما يستفاد من الحديث:

- الحديث «أنا وكافل اليتيم في الجنة هكذا» يشير إلى المنهج الإسلامي في إدخال السرور إلى قلوب الضعفاء واليتامى، ونشر روح السعادة بين أفراد المجتمع لتحقيق أكبر قدر من العناية نحو الأيتام من الناحية المادية والمعنوية.

- كفالة اليتيم وسيلة من وسائل التربية الاجتماعية وبث روح الإخاء والتكافل في المجتمع الإسلامي وبث روح الجهاد في نفوس المجاهدين.

---

(١) تحفة الأحوذي م٦، باب ما جاء في رحمة اليتيم ص ٤٥.

(٢) القرطبي: ج٥ ص٥٣.

obeikandl.com